الأخلاق عند أفلاطون *

بقلم الاستاذ يوسف كرم
مدرس الفلسفة بالجامعة المصرية

٣ ـ الحياة العقلية

ا ـ بعد أن وضع أفلاطون هذه المبادىء، ورسم صورتين للحياة مضى فى الواحدة على مقتضى نظرية المثل وطبقها أدق تطبيق : فكانت « حياة علوية » كلها حكمة ، وترفق فى الأخرى، فعرف للذة بعض الحق ، فكانت «حياة معتدلة» ، مؤلفة من حكمة ولذة ؛ ولما كانت الصورة الأولى ترجع إلى الكهولة ، والثانية إلى الشيخوخة ، ارتأى بعض مؤرخى الفلسفة أنه نسخ الواحدة بالأخرى ؛ والحق أن هذا التعارض ظاهر يرفع باعتبار الحياة العلوية مثلا أعلى ، يطمح إليه ويهتدى به إلى أن يتحقق ، والحياة المعتدلة ضرورة راهنة خاضعة لأختها ؛ ونحن نقدم الكلام على الثانية ، لأنها تعد بمثابة تمهيد للأولى ، فقد حلل أفلاطون اللذة تحليلا دقيقاً خرج منه بأنها خير بالإضافة ، وأدنى الخيرات جميعاً ، تدخل فى الحياة الخيرة بمقدار ضئيل جداً ؛ وأن الحكمة خير بالذات : بحيث يمكن القول إنه لم يسلم باللذة إلا ليرهنها بنقده .

ب ـ يقول أفلاطون فى (فيلاب) : ما من أحد يرضى أن يعيش بالحكمة دون أية لذة ، لأن الحكمة وحدها لا تفى بشرائط الحياة الأرضية ، ولا أن يعيش باللذات جميعاً دون عقل ، لأن اللذة ليست شيئاً إلا بالعقل ، يدركها ساعة حدوثها ، ويذكرها بعد فواتها ، ويتوقعها قبل أن تحصل، فيجب أن تشتمل الحياة الخيرة على الحكمة واللذة، وأن يطلب الخير فى مزاج منهما ، ولأجل تعيين هذا المزاج ننظر أولا فى كل على حدة ، ثم نقابل بينهما.

أما اللذة : فمنها الخالصة ، ومنها المشوبة؛ والمشوبة هى التى تنشأ عن ألم، أو تنتهى إلى ألم، والتى تنشأ عن ألم، أى عن حاجة واشتهاء، فهى عبارة عن وقف الألم؛ ومعظم لذات البدن من هذا القبيل، ينشأ الألم عن اختلال النظام، واللذة عن رده إلى نصابه؛ والتى تنتهى إلى ألم، مثل لذات المريض، والشره، والحسود، فهى جميعاً مزاج من لذة وألم، أى من خير وشر فى الجسم، أو فى النفس؛ ولا يمكن أن تقوم الحياة السعيدة فى مثل هذا المزاج ؛ وأما اللذة الخالصة ، فهى إحساس لطيف ،

* بقية البحث الذى نشر فى عدد نوفمبر سنة ١٩٣٢ من « المعرفة » .

لا يشوبه ألم ، يحصل بالألوان والأشكال الجميلة بالذات ، كما هي في الأشكال الهندسية ، لا بأشكال الأجسام الزائلة وألوانها ، وبالروائح العطرة ، وبعمل وظائفنا المختلفة عملا معتدلا ، وبالعلوم لا يصاحبها أي شغف بالتعلم ، لأن الشغف مؤلم .

واما العلوم ؛ فمنها الخالص ، ومنها المشوب كذلك ، والمشوب مثل الطب ، والزراعة ، والحرب ، والملاحة ، فإنها تقوم على التجربة والعادة ، وتستعمل التخمين ؛ والخالص مثل الحساب ، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى ، وفوقها جميعاً « الاستدلال » ،وهو علم العلوم ، موضوعه الوجود الحق الدائم غير المشوب ، فهو أخلصها .

حـ — فإذا أردنا أن نقابل بين اللذة والحكمة ، وجب أن نتبين مقدار تحقيق كل منهما لصفات الخير الذي نطلبه ؛ والخير : حق ، واعتدال ، وجمال ، فمن حيث الحق اللذة مأخذع الأمور ، إذ تمنى النفس بأكثر مما تعطيها من الغبطة ، من يجر وراءها يحي حياة شبحية ظاهرية ، بينما العقل ملكة الحق وحده ؛ وإن قيل إن من اللذات ما هو حق ، أجبنا :أن العقل هو الذي يحكم في الحق والباطل ، فهي تابعة له — ومن حيث الاعتدال : اللذة ميالة دائماً للإفراط ، أما العقل والعلم فليس ما يقاربهما اعتدالا ، بل إن العقل ميزان الاعتدال — ومن حيث الجمال ، لا شك أن الرجل الفاضل جميل جليل ، وأن صاحب اللذة بشع مضحك ، وإذاً فمن الوجهات الثلاث : اللذة لاحقة للحكمة خاضعة لها .

زد على ما تقدم أن اللذة ليست شيئاً معيناً بذاتها ، ولكنها حركة وتغير في النفس، تختلف نوعاً وكمية ، ولا تصير شيئاً ، ولا تتعين بالنوع والكمية إلا بالقصد إلى خير متمايز عنها ، فإنها فعل القوة الطبيعية ، والقوة موضوع تميل إليه وتتكمل به ؛ كما يتكمل العقل بالحق ، والبصر باللون والشكل ؛فالغاية: الموضوع والكمال،أما فعل القوة فواسطة ، لذلك لا توصف اللذة بأنها خير ، من حيث إن هذا الوصف يليق فقط بالأشياء القائمة بأنفسها ، وليس من النظام في شيء أن تراد اللذة لذاتها .

لهذه الاعتبارات يدخل في المزاج المنشود أولا كل ما هو حكمة : الاستدلال ، فالعلوم، فالفنون ، ثم الآراء الصادقة في المحسوسات ؛ إذ أن الانسان مفتقر في هذه الحياة إلى العلوم المشوبة ، يقضي بها حاجاته ، أما اللذات فلا يدخل منها إلا الخالصة والضرورية ، والتي تقارن الصحة والفضيلة ، فإنها كلها معتدلة ، وتستبعد الرديئة العنيفة بلا رحمة ؛ لأنها كلها مسرفة ، يمتنع بوجودها الاتفاق والتناسب في المزاج ، وبالجملة : ترتب الخيرات وفق ترتيب الموجودات ، فيجب أن يراعى هذا الترتيب في النفس .

هذا وصف الحياة المعتدلة ، ترى منه أن أفلاطون قد وسع معنى اللذة حتى شملت الاغتباط بالعلم والفضيلة، ثم حسب ما للذة والحكمة من قيمة بالقياس إلى الحق والاعتدال والجمال ، فكانت قيمة اللذة متواضعة غاية التواضع ، تسيطر عليها الحكمة وتحدها من كل جانب، ثم قسم للذة الحكمة الحظ الأوفى ، ووضع اللذة المشوبة فى المكان الأخير، أليس من البين أنه باق على عهده ، وأن ميله متجه كله إلى الحياة الحكيمة ؟

٤ ـ الحياة العاطفية

ا ـ هذه الحياة الحكيمة مطلب النفس الحقيق ، فإن النفس ـ لو تأملناها ـ وجدنا فيها قوة عظمى تحركها أبداً : هى الحب، والحب اشتهاء صادر عن الحرمان، إذ ما من أحد يشتهى ما هو حاصل له ؛ هو قلق دائم وشوق إلى الخير ، أى إلى ما من شأنه أن يعوض من الحرمان وجوداً ، وأن يملأ فراغ النفس ؛ فالحب مبدؤه الخير وغايته الخير ، هو وجود ناقص ووسط متحرك أبداً من الحرمان إلى الوجود ، وإلى الوجود الذى لا يفنى ، فهو اشتهاء الحصول على الخير حصولا دائماً ، هو جهد الكائن الفانى فى سبيل الخلود ، فإن اشتهاء الخلود متحد باشتهاء الخير .

ويتجه الحب أول ما يتجه إلى جمال الأجسام والأشكال ، ويقف الأكثرون عند هذا الجمال ظانين أنه الغاية ، وأن الخلود « الولادة فى الجمال المحسوس » ؛ ولكن النفس الحكيمة تشعر أنه زائف زائل ؛ لا يبرد شوقها ، ولا ينضب معين حبها ، فتجاوز هذا الوهم ، وتنهج فى الحب نهجاً استدلالياً موازناً لنهجها فى المعرفة ، إذ ترتقى من الإحساس إلى الرأى ، إلى العقل والمعقول ، فتدرك أن الجمال المتحقق فى جسم أخ للجمال المتحقق فى سائر الأجسام ، وأن الجمالات الجسمية جميعاً أشباه بعيدة لجمال واحد بعينه يحويها فى وحدته ، هو مثال الجمال المحسوس ، فتتخلص من التعلق بواحد ، وتعد إعجابها ومحبتها إلى الجمال الحسى أينما تألق لعينيها ، ثم تدرك أن ما تحب فى الأجسام إنما هى صفاتها ، وأن هذه الصفات فائضة عليها من النفس مصدر حياتها ، فترتفع من المعلول إلى العلة ، وتنفذ إلى النفس ، بل تنفذ إليها مهما كان غلافها دميماً ، لعلمها أن النفس جميلة فى ذاتها وتتعلق بها ، وتولد فيها الأفكار الجميلة والعواطف الشريفة ، ثم تعلم أن النفوس مشتركة فى جمال واحد،هو الجمال المعنوى ، فتصعد من جمال النفوس إلى جمال الفنون ، وبالأخص القوانين ، فإلى جمال العلوم النظرية ، ولا تزال تصعد من علم إلى علم ، حتى تبلغ إلى الجمال كله ، فتقف متأملة ، وتتهيأ بهذا التأمل إلى مشاهدة الجمال المطلق غير المخلوق ، وغير الفانى ، لا يزيد ، ولا ينقص ؛ ولا يتغير بجمال

الجمال بالذات الذى يحب لذاته من يشاهده ويتغذى به ، يولد فى نفسه الفضائل الحقة ويخلد فيه ، وأن ما يعطى قيمة لهذه الحياة ، إنما هو مشاهدة الجمال الأزلى ، نقياً لا تشوبه شائبة ، بسيطاً لا تغطيه أشكال وألوان مصيرها إلى الفناء .

هذه مراحل الحب يقطعها فى البحث عن ضالته وشفاء غليله ، فهو واسطة ومساعد يحفز النفس إلى الكمال ويهيج فيها الذكرى القديمة ـ ذكرى المثل والحياة السماوية الأولى ، ذكرى « الفردوس المفقود » تحن إليه بكل جوارحها ـ ؛ فالحب الكامل [الأفلاطونى] ، هو الفيلسوف يزدرى الجمال الزائل ، الذى يملأ النفس جنوناً ، ليتعلق بالجمال الدائم .

ب ـ انظر الآن إلى أفلاطون يطبق فى « فيدون » ما يقوله فى « المأدبة » ؛ ويصور الحب الكامل والحكيم العادل رجلا حياً ، يشعر ويعقل ، هذا الرجل هو « سقراط » فى حبه وقد دنا أجله ، لا يكفى القول فى وصف حاله إنه لا يخشى الموت ، أو إنه ينتظره بشجاعة ، فهو منتبط به أشد انتباط ، نعم هو يعلم أننا ملك الآلهة ، وأنهم وضعوا كلا منا فى مكان وعينوا له مهمة ، فلا يجوز له أن يهجر مكانه ، وأن يجبن دون أداء مهمته ، وأن الانتحار مخالف لإرادة الآلهة ، ولكنه يرحب بالموت يأتى على يد غيره ، لأن الفيلسوف يحس فى نفسه الشوق للإلهيات ، ويحس ثقل الجسم يعوقه عن اللحاق بها ، نفسه محبوسة فى جسمه ، والجسم عجلة للهم الدائم : بآلامه ، ولذاته ، ومخاوفه ، وشهواته يصرف النفس عن تأدية وظيفتها الخاصة ، وهى تأمل الحقيقة ؛ فالموت خلاص النفس وبداية حياة جديدة مع الآلهة وفضلاء الناس ، والفيلسوف الحق يجتهد منذ الآن ـ ساعة فساعة ـ أن يعيش العيشة التى يشتهيها ، وأن يتعجل الحياة الأخرى بممارسة الفضائل ، وعلى الأخص العفة بمعناها الأسمى ، وهو الرغبة عن اللذة ، والتجرد من البدن ، والمران على الموت فيبلى جسمه ويصفيه من المادة بقدر الاستطاعة ، لأنه يعلم أن مقره الحقيقى ليس فى هذا العالم المملوء بالشرور ، وأن مهمته الفرار من هنا إلى فوق بأسرع ما يمكن(١) ، وتتوفر أسباب الفرار بالتشبه بالله ، ويتشبه الانسان بالله بأن يصير عادلا قديساً ، بهذا تتبين المهارة الحقة ، أو التجرد من كل قيمة إنسانية ، وهذا ما معرفته حكمة وفضيلة ، وما جهله غباوة ورذيلة .

التشبه بالله ! هذه هى الغاية التى يرسمها لنا أفلاطون ، وليس بعدها غاية ، مهد لها بالرد على السوفسطائيين ، وتحديد معنى اللذة وقيمتها ، والفضيلة وأقسامها ، والحياة الروحية وشرائطها ؛ فوضع ـ لأول مرة فى تاريخ الفكر ـ مذهباً خلقياً كاملا ، هو مذهب الانسان يعرف نفسه وقدر نفسه . ؟

يوسف كرم

---

(١) هذه العبارة وما يليها من محاورة Théetète ص ١٧٦ .